



يخادع الإنسان نفسه أحياناً ، يريد أن يغطي على أخطائه أو فشله فيلجاً إلى سياسة التبرير، فهو يقول: إن هذه الأخطاء وهذا الفشل هو بسبب الآخرين، وأما أنا فقد قمت بما يجب علي، لقد بذلت جهدي ولكن مؤامرات الأعداء هي التي عرقلت الوصول إلى النتائج المطلوبة.

أهل السياسة يقولون: الاستعمار، الغرب هو الذي فرق شملنا وأضعف اقتصادنا، والبنك الدولي أضعف ميزانيتنا، وهو الذي يعرقل مشاريعنا التنموية، والطالب الكسول يقول: لقد درست ولكن الأسئلة كانت صعبة لم نتوقعها، والمزارع يقول: لقد ضعف إنتاج مزراعتي لأن الأعشاب الضارة تسربت إلينا من عند الجيران.

هذه الطريقة في التفكير وكأنها تريح بعض الناس من عناء التفكير والبحث الجاد عن المشاكل وحلولها، ومن عناء الأخذ بالأسباب كاملة، لأن المؤامرة بنظر صاحب هذا التفكير هي أكبر منا وهي واقعة موجودة فما الفائدة ؟ ولماذا التعب والمشقة، بل هو يريد أن يقطع عليك الطريق لأنك تخشى أن تشركه في التفكير السليم والعمل الجاد، لقد تضخم عنده هذا المنهج وسيطرت عليه نظرية المؤامرة وأصبح أسيراً لها .

هذه الطريقة في التبرير هي طريقة إبليسية، حين عصى إبليس ربه ولم يسجد لآدم عليه السلام بـر ذلك بأنها غواية من الله سبحانه وتعالى (قال فيما أغويني لـأقعدن لهم صراطك المستقيم) الأعراف / 16، بينما نجد آدم عليه السلام اتخذ الطريق الصحيح، اعترف بخطئه فتاب الله عليه (فـلتـقـى آـدـمـ مـنـ رـبـهـ كـلـمـاتـ فـتـابـ عـلـيـهـ) البقرة/ 37.

عندما نفند هذه الطريقة في التفكير فهذا لا يعني أن ليس هناك تاماً وكيداً من الأعداء فقد تعرض العالم الإسلامي للاحتلال والتقطيع وما تزال الحرب الثقافية والاقتصادية ، وما تزال أمريكا تؤيد الحكومات الديكتاتورية وتشجع الضالين المضلين من أبناء جلدتنا، نحن في صراع مع الغرب منذ خمسمائة عام عندما بدأ ما يسمى فترة الاستعمار من البرتغال وإسبانيا وبريطانيا وفرنسا ثم أمريكا وروسيا ، وهذا الصراع من السنن الكونية ليميز الله الخبيث من الطيب، إنهم يخشون من أن يعيده الإسلام سيرته الأولى، ولكن هل هذا الغرب هو الذي أوجد أو حرض على هذه التناقضات الموجودة عندنا، هل هو الذي قال لنا : اكثروا ولا تفوا بوعودكم ولا تتقنوا أعمالكم وغشوا في صناعتكم وزراعتكم ؟ وإذا وجدنا أن بعض الشعوب تغربت والتحقت بثقافة الغرب فما ذاك إلا لوجود القابلية عندهم للتغرب. وإذا كان هذا الغرب أيام سطوطه الاستعمارية استطاع أن يضع الحدود ويمارس التقسيم بين الشعوب الشقيقة ولكن هل يستطيع أن يمنعنا من التوحد أو التعاون لو أردنا ذلك بصدق

وإخلاص؟ وإذا كانت الحضارة الغربية ملأت حياتنا بمنتجاتها النافع والضار فذلك لأننا سوق مفتوح دون تحفظ ويستهونا الاستيراد والاستهلاك .

إن هذا المنهج في التفكير الذي يفضل الاستراحة من عناء البحث ولا يعترف بأخطائه لا يليق بال المسلم، كما لا يليق به أن يتبع على هذا الكسل الفكري ويعتمد طريق السهولة لحل المشاكل الصعبة التي تحتاج إلى الجهد الكبير والعمل الدؤوب، لا يليق بال المسلم هذا الرضا الزائف عن نفسه مع أننا بحاجة إلى النقد الأمين لأحوالنا وطراحتنا، نحن بحاجة للرجوع إلى قوله تعالى (قل هو من عند أنفسكم).

الإصلاح يبدأ من الداخل ، فإذا كان قوياً متماسكاً فالغالب أن الخارج لا يستطيع التأثير عليه، وإذا استطاع فهو من قبيل الضرر فقط كما قال تعالى (لن يضركم إلا أذى) فهو أذى وليس اقتلاعاً من الجذور، والشجرة القوية الصلبة الضاربة جذورها في الأرض قد تميل أغصانها ريح عاصف ولكن لا تقتلها، أما الشجرة المنخورة من داخلها فإنها تهوي من أول عاصفة .

لماذا نستريح لثب الآخرين ونبعد عن مواجهة أنفسنا ، لماذا لا نعترف بأخطائنا قبل أن نرميها على أكتاف الآخرين ، أخطأونا في التاريخ الحديث كثيرة وتجاربنا ومحاولاتنا كثيرة، لماذا لا يتم دراستها بعمق وحيادية بدل أن نستمر في اتهام الاستعمار وأعوان الاستعمار، أم نكتفي بقصيدة رثاء ونبكي على ما ضيغنا من فرص متاحة كما فعل الشاعر بعد كارثة الأندلس:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغير بطيب العيش إنسان

إن امتلاك الشجاعة الكافية للاعتراف بالأخطاء، وتجنب إيجاد الأعذار الواهية حول الأشخاص أو الجماعات أو الدول سيؤدي بنا إلى سلوك الطريق الصحيح للإصلاح بإذن الله.

نور سوريا

المصادر: